جامعة الشارقة
ملتقى الحضارات

مجلة جامعة الشارقة

دورية علمية محكمة

للعلوم الشرعية والدراسات الإسلامية

المجلد 15، العدد 2
ربيع الثاني 1440 هـ / ديسمبر 2018 م

الترقيم الدولي المعياري للدوريات 2616-7166

المفردة القرآنية وأثرها في توجيه التفسير العلمي

أحمد إبراهيم عبابنه

كلية القانون (قسم الشريعة) - جامعة عمان العربيّة

عمّان - الأردن

تاريخ الاستلام: 2017-05-04 **تاريخ القبول: 2018-02-07**

ملخص البحث:

بينت في هذا البحث أثر المفردة القرآنية في توجيه التفسير العلمي، من خلال جهات خمس كانت استنتاجاً ووصفاً لحال المفردة القرآنية في الآيات الكونية، تبدّت لي عند إمعان النظر في أمثلة التفسير العلمي، إذ عرضتُ من خلالها الأمثلة والنماذج التطبيقيّة التي تمّ فيها بيان دلالات بعض المفردات التي تعدّ مرتكزاً أساسيًّا في آياتها يُنطلق منها إلى تفسير سويّ مقبول.

مكان هذه الدّراسة هو ضوابط التفسير العلمي بشكل تطبيقي بجانب من جوانبه، وهي تمثّل إظهار العلاقة بين التفسير العلمي ولغة القرآن التي هي محلّ الإعجاز البياني من خلال أمثلة واضحة.

الكلمات الدالّة: المفردة، القرآنية، التفسير العلمي، القرآن.

مقدّمة:

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا، والصلاة والسلام على عبده ورسوله محمد؛ من أنزل عليه الوحي وبالقرآن جاء، فكان للمؤمنين هدى وللخلق معجزاً. وبعد:

فإن كتاب الله هو المعجزةُ الخالدة التي قيض الله لها من عباده رجالاً بينوا ما فيه من إعجازٍ وهدايةٍ، مقتفين في ذلك من وُكل إليه البيان محمٌّد صلى الله عليه وسلم(بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُون)[النحل 44]، وسمَّي صنيعُهُم ذلك علم التفسير وتفرّعت منه علوم وألوان من ضمنها التفسير العلمي الذي قد اتضحت معالمه وبلغ أوجه في عصرنا الحاضر، إلا أنّ بعض الباحثين فيه من فرط تحمسهم لإظهار عظمة القرآن وإعجازه، تسرّعوا في الأمر وكتبوا من غير رُويّة وأعطوا أنفُسهم خيالاً واسعاً فوقعوا في الخطأ.

ومنشأ الخطأ في أغلب الأحيان يرجع إلى عدم إدراك أهمية المفردة القرآنية في التفسير العلمي فكان هدف هذا البحث أن يوضح للباحثين في التفسير العلمي أهم أساس من أساساته وهو المفردة القرآنية، فالباحثون في بيان القرآن ولغته تكلموا في أسرار مفردات القرآن بشكل عام، إذ لم يتم إشباع الكلام عن المفردة في الآيات الكونية ودراسة أحوالها، والكاتبون في التفسير العلمي وضوابطه تكلموا في الضوابط كذلك بنفس العموم . فأردت جمع موضوع خاص يصف المفردة القرآنية في الآيات الكونية ويبين أهميتها في توجيه التفسير.

أسباب اختيار الموضوع:

1. بيان أهمية وأبعاد المفردة القرآنية في توجيه التفسير العلمي.
2. عدم إفراد الباحثين لموضوع المفردة القرآنية في الآيات الكونيّة بالبحث بشكل شامل لأحوالها ومستقل بها عن غيرها.
3. الحاجة إلى بيان العلاقة بين الإعجاز البياني للقرآن الكريم والذي قد انتظم القرآن كلّه؛ وبين وجوه الإعجاز الأخرى كالإعجاز العلمي.

4. تنبيه الباحثين في التفسير العلمي من غير المتخصصين بالتفسير إلى أهم حلقة في التفسير العلمي وضوابطه وهي المفردة القرآنية بشكل عملي واضح.

الدراسات السابقة:

بعد البحث والتتبع في الدراسات المتعلّقة بالمفردة القرآنية وأثرها في توجيه التفسير العلمي فإني وجدتها أحد شكلين: **الأول:** دراسات عنيت بالمفردة القرآنيّة لكن بشكل عام دون تخصيص بكونها في الآيات الكونية، ومن تلك الدراسات:

- أثر المفردة القرآنيّة في فهم دلالات النّص القرآني -دراسة تطبيقيّة- وهي رسالة علميّة تناولت المفردة القرآنيّة كأحد أبرز العناصر أهميّة وأثرا على النّصّ القرآني. وهي من إعداد الباحث: حمزة بوخزنة، بإشراف الدكتور رابح دوب، قدّمت في كليّة الآداب في جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلاميّة في الجزائر، وهي دراسة قيّمة لكنها عامّة

- جماليّات المفردة القرآنيّة؛ وهي رسالة علميّة من إعداد الباحث: أحمد ياسوف، بإشراف الدكتور الكبير نور الدين عتر وهي من طباعة دار المكتبي 1999م، وهي كسابقتها في العموم إلا أنها أفردت بما لم يزد على صفحتين موضوع (مفردات الإعجاز العلمي).

الثاني: وهو بشكل ومضات وإشارات في الكتب التي بينت منهجية التفسير العلمي، ومن أقربها لموضوعنا كتاب «التفسير العلمي للقرآن الكريم بين النظريات والتطبيق» للدكتورة هند شلبي، حيث قسمت الكتاب إلى قسمين: **الأول:** نظري حررت فيه القول بجواز التفسير العلمي بضوابط، والثاني: تطبيقي، عرضت فيه لنماذج من التفسير العلمي أقيمت على أساس تحليل لغوي.

لذا جاءت هذه الدراسة لتفارق ما سبقها في أنها تخصصت ببيان أثر المفردة القرآنية في توجيه التفسير العلمي، وألمت بشتات هذا الموضوع بشكل منهجي منظم. وهي من جهة أخرى تقارب بين وجهي الإعجاز اللغوي والعلمي بتطبيق عملي.

منهج البحث:

اعتمدت في هذه الدراسة المنهج التحليلي، ذلك أني عرضت وجوه أهمية المفردة القرآنية في الآيات الكونية بشكل مطالب؛ ثمّ في كل مطلب عرضت ثلاثة أمثلة تُدلّل على هذا الوجه، حيث يتم تحليل بعض المفردات فيهما والتي لها أثر مباشر في توجيه التفسير العلمي لتلك الآيات.

خطة البحث:

اقتضت طبيعة هذا البحث أن يقسم على النحو الآتي:

المطلب الأول: المفردة القرآنية تقود إلى دلالات علمية محدّدة.

المطلب الثاني: المفردة القرآنية تقود إلى استبعاد الترادف بين الألفاظ والتكرار بين الآيات.

المطلب الثالث: المفردة القرآنية من الممكن أن تُحمل على تفسيرات تناسب جميع العصور.

المطلب الرابع: باختلاف صيغة المفردة وتعددها تختلف دلالاتها العلميّة وتتعدّد.

المطلب الخامس: التقديم والتأخير بين المفردات له دلالات علمية دقيقة.

المطلب الأول:

المفردة القرآنية تقود إلى دلالات علمية محدّدة

إنّ المفردة القرآنية بأصل وضعها اللغوي لها دلالات واضحة لا يمكن أن ننزعها إلى غيرها، وبالتالي إذا تتبعنا دلالاتها اللغوية في الآيات الكونية ستقودنا حتما إلى رأي علمي واضح متناسب تمام التناسب مع الوضع اللغوي للكلمة. وحتى يتضح الكلام لا بدّ من عرض الأمثلة.

المثال الأول: دلالات لغوية في قوله تعالى:(أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلاَ يُؤْمِنُون) [الأنبياء:30].لقد ذهب المفسرون إلى أقوال عدّة في تفسير الآية وبيان المراد بكون السماوات والأرض كانتا رتقا

ففتقهما الله تعالى، واختلفت أقوالهم على النحو الآتي:

الرأي الأول: وهو أن يُراد بالرَّتْق والفَتْقِ حقيقتهما من الاتصال والانفصال، ويتفرّع عنه قولان:

الأول: أن ذلك على الجملة أي كانت السماوات والأرض جميعا كتلة واحدة ثم انفصلت. ومن المأثور في ذلك ما رواه الطبري عن ابن عباس رضي الله عنه قال: « كانتا ملتصقتين، فرفع السماء ووضع الأرض» وروى قريبا منه عن قتادة. [1]، وكذا ابن كثير عن سعيد بن جُبير؛ قال: بل كانت السماء والأرض ملتزقتين، فلما رَفع السماء وأبرز منها الأرض، كان ذلك فتقهما الذي ذكر الله في كتابه. وعن الحسن قال: « كانتا جميعًا، ففصل بينهما بهذا الهواء.»[2]

الثاني: على التوزيع، أي كانت السَّماوات رتقاً في حدِّ ذاتها وكانت الأرض رتْقاً في حد ذاتها ثم فتق الله السماوات وفتق الأرض. وقد قاله مجاهد : كانت السمواتُ مُرتتِقَةً طبقةً واحدة ففتقها فجعلها سبعَ سموات وكذلك الأرضُ كانت مرتتِقةً طبقةً واحدةً ففتقها فجعلها سبعَ أرضين. [3]

وبُني على هذا الرأي مذهب معاصر يفسّر نشأة العالم وبداية خلق السماوات والأرض بل هو النظرية السائدة في نشأة الكون، والتي تعرف بالانفجار الكوني العظيم حيث كان العالم في حيز واحد؛ كانت المادة فيه تنضغطُ في حيز صغير ذي كثافة عالية، ثم اعتراه انفجار عظيم. [4] وهذه النظرية مُدَعّمة بجملة من الحقائق تؤهّلها للقبول في تفسير الآية؛

(1) محمد بن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق محمود شاكر، (لبنان: مؤسسة الرسالة، 1420ه - 2000م)، ط1، ج: 18، ص: 430.

(2) إسماعيل بن عمر بن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي سلامه، (المملكة العربية السعودية: دار طيبة للتوزيع والنشر،1420ه – 1999م)، ط2، ج: 18، ص: 435.

(3) عبد الرحمن بن بكر السيوطي، الدر المنثور في التفسير بالمأثور، (مصر: دار هجر للبحوث، 1424ه – 2003 م)، ط1، ج:10، ص: 270 - 271 .

(4) أ د.عبد الرحمن عباد، الإعجاز العلمي في القران الكريم، المؤتمر العلمي الثالث للإعجاز في القرآن الكريم، (فلسطين: مطابع الجراح، 1422ه - 2001م)، ط1، ص: 409.

أهمها اكتشاف الخلفية الإشعاعية للكون المدرك.[1] و حقيقة اتساع وتمدّد الكون.[2] وتصوير الدّخان الكوني على أطراف الجزء المدرك من الكون. [3]

الرأي الثاني: أنْ يراد بالرّتق التئام السَّماء وعدم وجود خلل فيها، وفَتقُها بنزول المطر وحدوث الصواعق، وفتق الأرض بشق النبات لها.[4]وعلى هذا فالآية لا تعود إلى بيان أصل الخلق؛ خلق السماوات والأرض. بل لبيان عرض من أعراضهما وهو الإمطار والإنبات. ورجحه صاحب أضواء البيان [5]، وقال ابو السعود: عليه أكثرُ المفسرين.[6]

الرأي الثالث:أن يراد بالفتق الإيجاد والرّتق حالهما قبل ذلك وهو العدم. وقد نسبه الرازي لأبي مسلم الأصفهاني.[7]

الرأي الرابع: أن يراد بالرتق الظلمة والفتق النور، فالسماء والأرض كانتا ظلمة وفتقهما الله تعالى بالضوء.[8] وفي ظل تعدد الأقوال في تفسير الآية ستقودنا مفرداتها

(1) وهي على هيئة إشارات راديوية منتظمة وسويّة الخواص, قادمة من كافة الاتجاهات في السماء, وفي كل الأوقات دون أدني توقف أو تغير, ولم يتمكنوا من تفسير تلك الإشارات الراديوية, المنتظمة, السوية الخواص إلا بأنها بقية للإشعاع الذي نتج عن عملية الانفجار الكوني. انظر د. النجار، السماء في القرآن، ص: 101.

(2) إذ قد اكتشف حديثًا أن الكون يتسع ويتمدد ونتيجة لذلك تتباعد المجرات وأصبح هذا الأمر حقيقة وقانونا يعرف بقانون (هبل) ويدلُّ هذا التباعد على أنها جميعها كانت في حيز واحد ثم اعتراها انفجار عظيم وهو ما يعرف بقانون (هبل) وأصله إعجاز علمي في قوله تعالى: (وَالسَّمَاء بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُون) [الذاريات:47] د.زغلول النجار، السماء في القرآن، ص: 101 - 102.

(3) وهو الدخان الكوني الناتج عن عملية الانفجار العظيم على أطراف الجزء المدرك من الكون (على بعد عشرة مليارات من السنين الضوئية),وأثبتت أنها حالة دخانية معتمة سادت الكون قبل خلق السماوات والأرض، د.زغلول النجار، السماء في القرآن، ص: 101 - 102.

(4) محمد الطاهر ابن عاشور، التحرير والتنوير، (لبنان: مؤسسة التاريخ العربي، 1420 هـ – 2000م)، ط1، ج: 9، ص: 149.

(5) محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، (لبنان: دار الفكر 1415ه – 1995) ط1، ج:4، ص141.

(6) محمد بن محمد بن مصطفى العمادي، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، (لبنان: دار إحياء التراث العربي، 1422ه، 2002م)، ج: 6، ص: 64 - 65 .

(7) انظر فخر الدين محمد بن عمر الرازي، مفاتيح الغيب، (لبنان: دار الكتب العلمية،1421 - 2000م)، ط1، ج: 22، ص: 141.

(8) عبد الحق بن غالب ابن عطية، المحرر الوجيز في مزايا الكتاب العزيز، تحقيق عبد السلام عبد الشافي، (لبنان: دار الكتب العلمية، 1422ه - 2002م)، ط1، ج:4، ص: 80.

(الرتـق، الفتـق، ومـن قبلهمـا قضيـة الرؤيـة) لا محالـة؛ إلـى ترجـح، فلنقـف عليهـا.

الرَّتـق والفَتْـق همـا أهـم المفـردات هنـا ويتبّـن مـن معاجـم اللغـة أنّ معناهمـا يتّجـه نحـو الاتصـال والانفصـال، بـل هـو المشـهور لغـة يقـول صاحـب لسـان العـرب: « الرَّتْـقُ ضـدّ الفَتْـق قـال ابـن سـيده الرَّتْـق إلحـام الفَتْـق وإصلاحُـه رَتَقَـه يَرْتُقُـه ويَرْتِقُـه رَتْقـاً فارْتَتَـق أي التـأم... عـن ابـن عبـاس أنـه سـئل عـن الليـل هـل كان قبـل النهـار؟ فتـلا أن السـماوات والأرضَ كانتـا رَتْقـاً، والرَّتْـق الظُّلمـة... والراتـق المُلْتَئـم مـن السـحاب... الرَّتْقـاء المـرأة المُنضَمّـة الفـرج ».[1]

وإذا مـا انتقلنـا إلـى مـا قيـل مـن أنـه يُـراد بالرّتـق الظـلام وبالفتـق النـور؛ فلـم يذكـره أهـل اللغـة إلا مـن حديـث ابـن عبـاس رضـي الله عنـه، ولـم أجـده فـي غيـر حديثـه، فتنشـأ لدينـا احتماليـة أن المعنـى الأول حقيقـة والثانـي مجـاز. ومثـل ذلـك يقـال فـي المعنـى الثالـث أقصـد العـدم والإيجـاد، فـإنّ ذلـك لا يسـتقيم فـي الحقيقـة اللغويـة لمعنـى الرتـق والفتـق. ومـن هنـا تقودنـا مفردتـي الرتـق والفتـق إلـى معنـى مُحـدّد هـو الاتصـال والانفصـال.

ومـن المفـردات المهمـة فـي الآيـة الرؤيـة التـي جعـل المفسـرون المـراد بهـا تبعـا للمـراد بالفتـق والرتـق، علـى أن الأرجـح فيهـا أنهـا الرؤيـة العلميـة القلبيـة لا البصريـة المشـاهدة، وهـو مـا رجحـه الـرازي ووصـف القـول بخلافـه بالمشـكل[2]، وأسـتدلُّ بمـا قـرَّره أهـلُ اللّغـة مـن أن « الرُّؤيَـة بالعَيْـن تَتَعـدَّى إلـى مفعـول واحـد وبمعنـى العِلْـم تتعـدَّى إلـى مفعولين يقـال رأى زيـداً عالمـاً »[3] وبـأن الرؤيـة بالعيـن تتعـدى أحيانـا بـ(إلـى) كقولـه تعالـى:(أَوَلَـمْ يَـرَوْا إِلَـى الطَّيْـرِ فَوْقَهُمْ صَـافَّـاتٍ وَيَقْبِضْـنَ)[الملـك:19].

وهـذا يعنـي أنّ الآيـة موضوعهـا خلـق السـماوات والأرض لا قضيـة الإمطـار والإنبـات؛ التـي اندفـع القـول بهـا مـن خـلال دلالات الرؤيـة اللغويّـة. وكذلـك اندفـع القـول بـأن الرتـق والفتـق الظلمـة والنـور أو العـدم والإيجـاد مـن دلالات المفردتين(الرتـق والفتـق)، فلـم يبـق أمامنـا إلا ترجيـح المعنـى الأول وهـو أن الله تعالـى أخبـر فـي هـذه الآيـة عـن بدايـة خلـق السـماوات والأرض، وأنهمـا كانتا(رتقـا) جملـة وكتلـة واحـدة ففصلهمـا الله تعالـى بقدرتـه، وشـمل هـذا الانفصـال أيضـا فتـق السـماوات إلـى سـبع، وكذلـك الأرض، جمعـاً بيـن الأقـوال، وإعمـالاً

(1) محمد بن مكرم ابن منظور، لسان العرب، (لبنان: دار صادر 1414ه - 1994م) ط1، ص 10/114.

(2) لأن القوم ما رأوهما كذلك البتة هذا أولاً، أما ثانيا: فلقوله سبحانه وتعالى:(ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض)[الكهف: 51]. انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، ج:22، ص: 141.

(3) ابن منظور، لسان العرب، ج:10، ص:114.

للآثـار الـواردة فـي ذلـك، ثـمّ هـو ممـا تأكّـد فـي العلـوم الفلكيـة المعاصـرة.

المثـال الثانـي: وهـو قـول الله تعالـى: (وَتَـرَى الْجِبَـالَ تَحْسَـبُهَا جَامِـدَةً وَهِـيَ تَمُـرُّ مَرَّ السَّـحَابِ صُـنْـعَ اللَّهِ الَّـذِي أَتْقَـنَ كُلَّ شَـيْءٍ إِنَّـهُ خَبِيـرٌ بِمَـا تَفْعَلُون)[النمل:88].وهـذه الآيـة كسـابقتها؛ اختلفـوا: هـل أريـد بهـا أمـر دنيـوي واقـعٌ فعـلاً، أم أمـر غيبـي لكنـه فـي هـذه الآيـة إخبـار عـن الآخـرة لا عـن أصـل الخلـق، وقـول قدمـاء المفسـرين مختلـف عـن قـول بعـض المُحدثيـن، والخـلاف فيهـا علـى النحـو الآتـي:

أولاً: ذهـب قدمـاء المفسـرين إلـى أنّ الآيـة متعلّقـة بالآخـرة وهـي معطوفـةٌ علـى قولـه تعالـى: (وَيَـوْمَ يُنفَـخُ فِـي الصُّـورِ فَفَـزِعَ مَـن فِـي السَّـمَاوَاتِ وَمَـن فِـي الأَرْضِ إِلاَّ مَـن شَـاء اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَـوْهُ دَاخِرِيـن) [النمـل:87]، وبهـذا فهـي تبيـن حالـة تحـلّ بالجبـال فـي وقـت مـن أوقـات الآخـرة، حيـث سـتزلزل وتتحـرك وتُسـيّر و(يَنسِـفُهَا رَبِّـي نَسْـفًا)[طه:105]، وفـي هـذه الآيـة طـور مـن أطـوار فسـادها وخرابهـا وهـو أنهـا سـتمر مـر السـحاب.[1]وقال بذلـك أيضـا بعـض المحدثيـن إنطلاقـا مـن السـياق[2]

ثانيـا: ذهـب بعـض المحدَثيـن مـن المفسـرين إلـى أن الآيـة الكريمـة متعلقـة بأمـر دنيـوي، ذلـك أنهـا تشـير إلـى حقيقـة عظيمـة لـم تكـن معروفـة فيمـا مضـى، وهـي أن الأرض تتحـرك وتـدور حـول نفسـها وحـول الشـمس؛ فـإن الناظـر إلـى الجبـال يحسـبها جامـدة سـاكنة لأول وهلـة لكنهـا فـي حقيقتهـا تمـر مـرورا شـبيها بمـرور السـحاب وتنقلهـا بالرغـم مـن أن الرائـي يراهـا وكأنهـا فـي مكانهـا تمـلأ السـماء. فكذلـك الجبـال متحركـة مـع الأرض باعتبارهـا أحـد أظهـر أجزائهـا. وبهـذا التفسـير تكـون الآيـة متعلقـة بالدنيـا لا بالآخـرة. [3]

يقـف الباحـث حائـرا أمـام القولـين لأول وهلـةٍ، ثـم يتبيّـن لـه الأمـر وينبلـجُ شـيئاً فشـيئاً وذلـك إذا مـا انتقـل إلـى لغـة الآيـة وتمعّـن مفرداتهـا . حتـى إنّ الأمـر لـم يـرق لصاحـب تفسـير التحريـر والتنويـر ووصـف أقـوال المفسـرين فـي هـذا الموضـع بالضعـف حينمـا قـال: « وليـس فـي كلام المفسـرين شـفاء لبيـان اختصـاص هـذه الآيـة بـأن الرائـي يحسـب الجبـال جامـدة، ولا بيـان وجـه تشـبيه سـيرها بسـير السـحاب، ولا توجيـه التذليـل بقولـه تعالـى (صنـع الله الـذي أتقـن كل شـيء)

(1) انظر: أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج: 6، ص: 304.

(2) انظر: الشنقيطي، أضواء البيان، ج: 6، ص: 145، وانظر: د. وهبة بن مصطفى الزحيلي، التفسير المنير، (لبنان: دار الفكر، 1418ه – 1998م)، ط2، ج:20، ص: 42.

(3) انظر: الشعراوي، الشيخ محمّد متولّي، الخواطر(مصر:مطابع أخبار اليوم)، ج17/ ص: 10858 - 10859

فلذلك كان لهذه الآية وضع دقيق، ومعنى بالتأمل خليق. ».[1] وأحسبه هنا يشير إلى دلالة المفردات (تحسبها) و(جامدة) ووجه التشبيه (كمر السحاب)، أضِف إلى ذلك دلالة كلمة (تمرّ).

مفردة (تحسبها) هي في الحقيقة متعلقة بالفعل الذي قبلها (ترى) [2] ، والمسوّغ نحواً اعتبار (تحسبها) بدلاً من(ترى)، أو حالاً من ضمير (ترى) [3] أي أنّ الرائي يراها لحظة ما يراها في هيئة الساكنة؛ وهو في الحقيقة ظن لا أنه يراها كذلك لأن الواقع بخلافه، فالرائي يراها جامدة والحقيقة أنها تمر. وهذه أول إشارة من مفردات الآية تقودنا إلى أنّ الآية تقرر حقيقة حركة الأرض لا حقيقة تحوّل الجبال في الآخرة. وأما المفردة الأخرى فهي (جامدة) وفي معناها قال الزمخشري: المعنى ساكنة من جمد في مكانه إذا لم يبرح [4]، وبهذا المعنى تتسق وتنسجم مع المفردة المقابلة لها وهي (تمرّ) الدّالة على الحركة، ولو كان معنى جامدة متلاحمة عكس مفتتة لما اتسقت وانسجمت مع لفظة (تمرّ)، وهذا أيضا يؤيد نفس القول.

ثمّ إن ظاهر المفردة الثالثة وهي (تمرّ) بهذا الفعل المضارع يؤيد بجلاء أن الآية تتجه إلى نحو ما ذكرتُ. لذا يقول القاسمي رحمه الله: « فهذه الآية صريحة في دلالتها على حركة الأرض ومرور الجبال معها في هذه النشأة. و لا يمكن حملها على أن ذلك يقع في النشأة الآخرة، أو عند قيام الساعة وفساد العالم وخروجه عن متعاهد النظام.»[5]، نعم في نفس اللحظة التي تراه تكون الحركة، فالرؤية والظن والحركة مجتمعات في زمن واحد فأنت ترى وتحسب والجبال تتحرك كله في نفس اللحظة. ولعل اختيار السحاب دون غيره في التشبيه قرينة أخرى فأنت عندما تراه لا تظنه يتحرك لضخامته لكنه في واقع الأمر متحرك.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج:10، ص: 335.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير ج: 10، ص: 335.

(3) محمد بن يوسف بن حيان، البحر المحيط، تحقيق صدقي محمد جميل، (لبنان: دار الفكر 1420ه، 2000م)، ط1ج: 8، ص:269.

(4) محمود بن عمر الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل،تحقيق: عبد الرزاق المهدي، (لبنان: دار التراث العربي،1427ه - 2007م)، ط1 ج:3، ص: 387.

(5) محمد بن جمال الدين القاسمي، محاسن التأويل، (لبنان: دار الكتب العلمية 1418ه - 1998م)، ط1، ج:7، ص: 510.

المثال الثالث: يقول الله سبحانه وتعالى: (وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِين)[الحجر:22]. ما معنى (لواقح)؟ وما هي دلالاتها العلمية التي ستقودنا إليها؟

إذا انتقلنا إلى معاجم اللغة فإننا نجد أن أصل اللام والقاف والحاء يدل على إِحْبَالِ ذَكَرٍ لِأُنْثَى،،[1] وهذا هو المعنى الحقيقي للمفردة، وقدماء المفسرين بعد ذلك ذهبوا في تفسير الآية إلى أنّ من الرياح مَا يُلَقِّحُ الشَّجَرَ، وَمِنْهَا مَا تَأْتِي بِالسَّحَابِ [2]، وهو تفسيرٌ مباشر وتصديقٌ بالآية من دون بيان وجه الإعجاز العلمي فيها، لأنهم لم يكونوا على علم مفصّل بكيفية التّلقيح. حتى لو قالوا بتلقيح النبات الذكر لأنثاه -على الحقيقة- بسبب الرّياح، إلا أنّ الشق الثاني وهو تلقيح السّحب لم تتبين حقيقته عندهم؛ بالرغم من أنه الأقوى والأنسب للسياق، لأن الآية رتبت إنزال الماء عليه بحرف الفاء التي تقتضي سرعة التعقيب. وإذا ذهبنا للعلم الحديث وجدنا تفسيرا معقولا متناسبا مع دلالات هذه المفردة، وبيانهُ أن من السحب موجبة الشحنة ومنها سالبة الشحنة و للرياح أثر في تكثيف السحاب بفعل هذه الكهربائية، والكهربائية تجمع الغيمة بالغيمة أو تفرقها بمشيئة الله تعالى واذا اجتمعت كبرت شحنتها الكهربائية ولا تزال كذلك حتى تتحد فاذا اتحدت نزل المطر فتجتمع القطيرات المختلفة بين السحابتين فتجذب كل منهما قرينتها حتى تكون قطرة فيها ثقل فتنزل.[3]

المطلب الثاني:

المفردة القرآنية تقود إلى استبعاد الترادف[4] بين الألفاظ، والتكرار بين الآيات

لعلّ مما ينبغي أن يشار إليه بداية، أنّ إثبات الترادف بين المفردات في كتاب الله تعالى أمر لا يستقيم،[5] وقد أقام المفسرون على هذا أمثلة كثيرة في ثنايا تفاسيرهم حتى اشتُهِر بعض

(1) أحمد ابن فارس، مقاييس اللغة، (اتحاد الكتاب العرب 1420ه - 2000م) ط1، ج:5، ص 26

(2) محمد بن أحمد القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: سالم البدري، (لبنان: دار الكتب العلمية،1420ه - 2000م)، ط1، ج: 10، ص: 15 .

(3) د. الغمراوي، محمد أحمد، الاسلام في عصر العلم، (القاهرة، مطبعة السعادة، ط 1973م)، ص: 340 - 346

(4) وهو الألفاظ المختلفة التي تدل على شيء واحد. انظر: جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، (لبنان: دار الكتب العلمية، 1418ه - 1998م)، ط1، ج:1، ص:317.

(5) يقول الزركشي: فعلى المفسر مراعاة الاستعمالات والقطع بعدم الترادف ما أمكن فإن للتركيب معنى غير معنى الإفراد ولهذا منع كثير من الأصوليين وقوع أحد المترادفين موقع الآخر.ا.ه، الزركشي، البرهان في علوم القرآن، (سوريا: دار إحياء الكتب العربية، 1376ه - 1957م)، ط1، ج:4، ص: 78.

تلك المفردات، كالفرق بين قعد وجلس، والغيث والمطر، وقائم وواقف، والوهن والضعف...، والآيات الكونيّة في كتاب الله قد وقع فيها شيءٌ من هذه المفردات، ومن الحكمة أن يتعامل معها الباحثون بما ترجّح من عدم الترادف، بحيث تُحمل تلك المفردات على دلالات مختلفة.

المثال الأول: وهو في قول الله تعالى: (هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاء وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُون)[يونس:5]. حيث وصف الله تعالى في هذه الآية الشمس بالضياء والقمر بالنور والكلمتان متقاربتان، ولكن هل من فرق بينهما حتى نسبت الأولى للشمس والثانية للقمر.؟

يقول صاحب البحر المحيط : «والضياءُ أقوى من النور وقيل: ما بالذات ضوءٌ وما بالعرَض نور، ففيه إشعارٌ بأن نورَه مستفادٌ من الشمس».[1] وندرك الفرق بين المفردتين أيضا عندما استخدمتا في موضع آخر في كتاب الله وهو قول الله تعالى:(مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُون) [البقرة:17]. وفي تفسير الآية يورد الرازي سؤالاً ويجيب عليه فيقول: «هلا قيل ذهب الله بضوئهم لقوله فَلَمَّا أَضَاءتْ الجواب: ذكر النور أبلغ لأن الضوء فيه دلالة على الزيادة فلو قيل ذهب الله بضوئهم لأوهم ذهاب الكمال وبقاء ما يسمى نوراً والغرض إزالة النور عنهم بالكلية ألا ترى كيف ذكر عقيبه وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ ».[2]

هنا ندرك ونحن ننظر إلى الشمس فنرى الشمس مضيئة، حتى لا تكاد أن تديم النظر إليها بخلاف القمر فندرك عندها سر المغايرة بين الوصفين حتى نسب الضياء للشمس ونسب النور للقمر، وهذا الأمر ليس بمشاهد فقط بل واقع وضحه الفلكيون بأن الشمس تحوي 70 % هيدروجين و27% هيليوم و3% غازات أخرى مثل الأوكسجين والكربون والبورون...، وتحترق ذرات الهيدروجين وتتحول الى ذرات من الهيليوم في عملية مستمرة ويرافق ذلك الضوء الساطع والحرارة الهائلة، وفي كل ثانية يتحول أربعة ملايين طن من المادة إلى طاقة [3] فلا استغراب بعد ذلك بأن توصف بالضياء.

وتستخدم كلمة النور في وصف القمر الذي هو جرم معتم بارد؛ شدّة توهجه (1)

(1) أبو حيان، البحر المحيط، ج:10، ص: 284.

(2) الرازي، مفاتيح الغيب، ج:2، ص:69.

(3) د. محمد باسل الطائي، أساسيات في علم الفلك والتقاويم، (الأردن، مكتبة الروزنا، 1421ه - 2001م)، ط1، ص: 158.

من (650000) من شدة توهج الشمس، ثمّ إنّ البدر الكامل يعكس 7% من ضوء الشمس المرئي، وإن أشعة الشّمس فيها أشعّة بيضاء مرئية وأشعّة غير مرئية تتألّف من ألوانِ الطيف السبعة ويصل إلينا منها غير الأشعّة البيضاء من مثل فوق البنفسجية والأشعّة تحت الحمراء , أمّا القمر فلا يعكس غير البيضاء (النور) [1]. فسبحان منزل الكتاب.

المثال الثاني: وهو بين قول الله تعالى: (وَالْبَحْرِ الْمَسْجُور) [الطور:6] وقوله: (وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَت) [التكوير:6]. وقد فُسّرا بمعنى واحد [2]، وهذا ما لا يقبله النص القرآني المحكم.

إنّ الباحث في كتب التفسير يجد للمفسرين فيهما أقوالاً، وذلك تبعا لتحديد معنى السّجر أولا ثمّ هل هو كائن الآن أم سيكون يوم القيامة، وكانت آراء المفسرين على النحو الآتي:

الرأي الأول: أنّ السّجر بمعنى الامتلاء وقد روي أثرا واختاره ابن جرير حيث روي عن قتادة أنه المملوء[3]وقيل عكسه أيضا أي أن المراد به الفارغ، وروي عن ابن عباس[4]

الرأي الثاني : وهو أن يراد بالسّجر الإيقاد، ذلك أن البحار يوم القيامة تسجّر ناراً، وجعلوا الآية الأولى كالثانية في المعنى، والمقصود أنّ البحار تصير ناراً يوم القيامة محيطة بأهل الموقف. وروي خبر تحوّل البحار ناراً يوم القيامة عن عدد من الصحابة والتابعين؛ كعلي بن أبي طالب، وابن عباس، وسعيد بن جبير، وسعيد بن المسيّب، ومجاهد، [5]وعبدالله بن عبيد بن عُمير وغيرهم.

الرأي الثالث: ومن الآراء التي رويت أثرا أن معنى البحر المسجور المحمى أي الموقد عليه وقد رواه الطبري عن عطيه ومجاهد حيث قالا: المسجور الموقد. [6]

وبالرجوع للّغة يتبين أن مفردة السّجر تشير لمعانٍ ثلاث ذكرها ابن فارس في معجمه

(1) د. داود السعدي، أسرار الكون في القرآن، (دار الحرف العربي 1417ه - 1997م)، ط1، ص: 86 - 87

(2) الزمخشري، الكشاف، ج: 4، ص: 408.

(3) الطبري، جامع البيان، ج:22، ص:460.

(4) ابن كثير، تفسير القرآن، ج:7، ص: 429.

(5) ابن كثير، تفسير القرآن، ج: 7، ص:430

(6) الطبري، جامع البيان، ج:22، ص:458.

وهـي المَـلء، والمخالطـة، والإيقـاد [1]، ويعنـي هـذا صحـة الأقـوال السـابقة لغـة. ولكننـا إذا أنعمنـا النظـر فـي الآيتيـن نجـد بينهمـا فرقـا فـي النظـم يتلخـص فيمـا يلـي:

الآيـة الأولـى: فيهـا قسـم والمقسـم بـه البحـر المسـجور، ولا بـدّ مـن وجـود شـيء مهـم فـي المقسـم بـه اسـتدعى القسـم. وفيهـا أنهـا جـاءت فـي سـياق القسـم بأمـور واقعـة وموجـودة (الطـور، كتـاب مسـطور، البيـت المعمـور، السـقف المرفـوع) فمـن التناسـب والانسـجام فـي السـياق أن يكـون البحـر المسـجور موجـود الآن لا أنـه مـن أحـداث الآخـرة.

الآيـة الثانيـة: لا يوجـد فيهـا قسـم بـل فيهـا أداة الشـرط (إذا). وفيهـا أيضـا أنهـا جـاءت فـي سـياق ذكـر أمـور مـن أحـداث الآخـرة كلهـا صُـدّرت بـأداة الشـرط (إذا):(إِذَا الشَّـمْسُ كُـوِّرَت) [التكويـر:1 - 13]، وجوابهـا جميعـا هـو قـول الله تعالى:(عَلِمَـتْ نَفْـسٌ مَّـا أَحْضَـرَت) [التكويـر:14]، فالآيـة فـي سـياق الآخـرة وأحداثهـا، وهـذا يعنـي اختلافـا بيّنـا بيـن الآيتيـن مـن حيـث النظـم وكـذا السّـياق، وبالتالـي اختـلاف فـي التفسـير وتغايـر فـي المعنـى.

وإننـا الآن نسلّم بوجـود فـرق بيـن الآيتيـن، وأقـف أولا مـع الآيـة الأولـى والتـي يُفهـم منهـا: أن الله تعالـى أقسـم بالبحـر الموقـد. وتبيـن أن هـذا المعنـى مأثـور عـن عطيـة ومجاهـد. ولكـن هـل هـذا وقـع؟ يكشـف العلـم الحديـث عـن حقيقـةٍ عظيمـةٍ وضحهـا الأسـتاذ الدكتـور زغلـول النجـار[2]؛ وهـي أن الغـلاف الصخـري لـلأرض تتخللـه صـدوعٌ عظيمـةٌ تخـرج منهـا الحمـم المنصهـرة ذات الدرجـات العاليـة؛ التـي تـكاد توقـد البحـر مـن شـدتها، ولكـن هيهـات لا المـاء علـى كثرتـه قـادر علـى إطفائهـا، ولا الصّـدوع علـى درجـات حرارتهـا توقـده فهمـا فـي صـراع دائـم إلـى يـوم القيامـة.

وتوجيـه الآيـة نحـو هـذا الفهـم - أقصـد أن نذهـب بالآيـة إلـى وجـود البحر المسـجور المشـتعل فـي عالمنـا المشـهود -؛ كاد الطبـري أن يرجحـه لـولا أنُّـه لـم يجـده مشـاهداً أو معروفـاً فـي زمانـه، إذ يقـول: « الأغلـب مـن معانـي السـجر: الإيقـاد، كمـا يقـال: سـجرت التنـور، بمعنـى: أوقـدت، أو الامتـلاء علـى مـا وصفـت. فـإذا كان ذلـك الأغلـب مـن معانـي السَّـجْر، وكان البحـر غيـر مُوقَـد اليـوم، وكان الله تعالـى ذكـره قـد وصفـه بأنـه مسـجور، بطـل عنـه إحـدى الصفتيـن، وهـو الإيقـاد صحّـت الصفـة الأخـرى التـي هـي لـه اليـوم، وهـو الامتـلاء، لأنـه كلّ وقـت ممتلـئ». [3]

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، ج:3، ص:103 - 103.

(2) د. زغلول النجار، الأرض في القرآن، (لبنان، دار المعرفة 2001) ط1، ص:197 - 198.

(3) الطبري، جامع البيان، ج:22، ص:429.

وبما أنّ الأمر اتضح بالنسبة لآية الطور؛ فإنّه يتضح كذلك في آية التكوير إذ من الممكن أن تحمل الآية على اشتعال البحار في الآخرة بقدرة الله تعالى، كما ثبت تفسيرها عند السّلف، فكانت كلّ من الآيتين مختلفة تماما عن الأخرى والفارق الذي قادنا لكل ذلك: النظم والمفردات والسّياق.

المثال الثالث: وهو في قوله تعالى: (وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ) [لقمان:10]، وقوله أيضا: (وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا)[النازعات:32]. وإذا ما نظرنا نظرة المتأمل المتفكر في كتاب أحكمت آياته لنجد أن خلق الجبال في الأرض قد وضع له في كل من الآيتين فعل مختلف، فقد كان في الأولى (ألقى) وفي الثانية (أرسى)، والإلقاء يتّضح إذا علمنا أنّ من أحوال تكوّن الجبال هو ما يكون بعمليات إلقاء للطفوح البركانية من داخل الأرض إلى خارجها، بحيث تخرج من مناطق الضعف الأرضي وتظل تتراكم فوق بعضها البعض لتكون كتلا جبلية معزولة من الصخور البركانية تصل ارتفاعاتها الى آلاف الأمتار فوق مستوي سطح البحر، لأن معظم هذه البراكين يستمر في نشاطه لفترات تتراوح بين20 و30 مليون سنة.[1]وهذا هو أصل تشكّل الجبال النّاريّة. والإلقاء متحقق أيضا في الجبال الرّسوبيّة المعتمدة على ما تلقيه الأنهار من رواسب في المياه الضحلة، حتى اذا تراكمت وتماسكت بالتضاغط رفعها الله تعالى جبالا شاهقة[2]، فسبحان منزل الكتاب .

أما عن فعل الرّسوّ الذي يدلّ لغة على الثبات والتمكن في المكان ومنه قوله سبحانه: (وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ)[سبأ:13]، كما يقال: رست السفينة، إذا شدت إلى الشاطئ فوقفت،[3]وعليه يكون إرساء الجبال إثباتها في الأرض.

فتبيّن من ذلك أن المفردة الأولى أشارت إلى أصل خلق الجبال وأنّه كان بالإلقاء أما الثانية فإلى قضية رافقت ذلك التكوين بحيث كانت الجبال على نحو ثابت راسخٍ راسٍ حتّى أسماها الله رواسي.

(1) د. النجار، الأرض في القرآن، ج:3، ص:75 .

(2) منصور، محمد، الكون والإعجاز العلمي للقرآن، (مصر: دار الفكر العربي، 1423 - 2003م) ط1، ص 171

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج: 30، ص: 88

المطلب الثالث:

المفردة القرآنية من الممكن أن تحمل على تفسيرات تناسب جميع العصور

لقد تكفل الله تعالى بحفظ كتابه إذ يقول جلّ شأنه:(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُون)[الحجر:9]، وبيّن أنّه سيبقى هاديا داعيا مُنتَفَعَا به إلى يوم الدين فهو(يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ) [الإسراء:9]، بالفعل المضارع (يهدي)، وبالمضارع بنون العظمة قال ربّنا:(سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ)[فصلت:53]، وهذا المعنى ملحوظ في مفردات القرآن فهي تملؤ العقول والقلوب على مرّ الأزمان، ومفردات الآيات الكونيّة - بكونها من القرآن - لا بُدّ أن تحمل نفس الطابع ، وبالتمثيل يتضح الأمر.

المثال الأول: وهو في قول الله تعالى: (فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُوم) [الواقعة:75]، وعند تصفح التفاسير نجد أنّ لتفسير مواقع النجوم احتماليين؛ الأول: أنها نجوم القرآن[1]. والثاني: أنها نجوم السماء وأن مواقعها محالٌ وقوعها وخطوط سيرها.، و بروجها ومنازلها.[2]

أقول: لعلّ مما يؤخذ على القول الأوّل أن كلمة (النجوم) لا تستخدم في القرآن الكريم إلا ويراد بها النجوم بمعنى الأجرام السماوية المعروفة لا بمعنى نجوم القرآن، ثم إنّ استخدام مادّة التنجيم لنزول القرآن لم توجد في القرآن الكريم بل الموجود غير ذلك وهو (وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلا) [الإسراء:106] ولم يقل قرءانا نجُمناه، فالمعنى بعيد والله تعالى أعلم. أما القول الثاني فهو الأشهر عند المفسرين ، وقد رجّحه شيخ المفسرين ابن جرير الطبري،[3]وهو الظاهر أيضاً من كلام ابن كثير الذي يقول: «وقال مجاهد أيضا: مواقع النجوم في السماء ويقال مطالعها ومشارقها وكذا قال الحسن وقتادة وهو اختيار ابن جرير وعن قتادة: مواقعها منازلها.»[4]

وهذا التفسير مفهوم في ذلك العصر بيّن معجز يفهم الجميع منه لفت الأنظار في ثبوت مواقع هذه النجوم ومغاربها ونظام سيرها الذي يبدو لهم وهداية السائر بها.(وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُون)[النحل:16]، وفي عصرنا الحاضر نفهمها بفهم يثبت إعجاز القرآن

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ج:6، ص:267.

(2) انظر الرازي، مفاتيح الغيب، ج:29، ص: 163.

(3) الطبري، جامع البيان، ج:23، ص:148.

(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج:7، ص: 544.

العظيم في ظل التقدم العلمي الذي يقول في هذا الجانب: أنه نظراً للأبعاد الشاسعة التي تفصل نجوم السماء عنا, فإننا لا يمكن لنا رؤية النجوم من على سطح الأرض أبدا, ولا بأية وسيلة مادية, وكل الذي نراه من نجوم السماء هو مواقعها التي مرت بها ثم غادرتها, إما بالجري في الفضاء الكوني بسرعات مذهلة, أو بالانفجار والاندثار, أو بالانكدار والطمس.

فالشمس وهي أقرب نجوم السماء إلينا تبعد عنا بمسافة مائة وخمسين مليون كيلومتر, فإذا أنبثق منها الضوء بسرعته المقدرة بحوالي الثلاثمائة ألف كيلومتر في الثانية من موقع معين مرت به الشمس فإن ضوءها يصل إلى الأرض بعد ثماني دقائق وثلث دقيقة تقريبا, بينما تجري الشمس بسرعة تقدر بحوالي19 كيلومترا في الثانية في اتجاه نجم النسر الواقع [Vega] فتكون الشمس قد تحركت لمسافة لا تقل عن عشرة آلاف كيلومتر عن الموقع الذي انبثق منه الضوء. وأقرب النجوم إلينا بعد الشمس وهو المعروف باسم الأقرب القنطوري يصل إلينا ضوؤه بعد4,3 سنة من انطلاقه من النجم, أي بعد أكثر من خمسين شهرا يكون النجم قد تحرك خلالها ملايين عديدة من الكيلومترات, بعيدا عن الموقع الذي صدر منه الضوء, وهكذا فنحن من على سطح الأرض لا نرى النجوم أبدا, ولكننا نرى صورا قديمة للنجوم انطلقت من مواقع مرت بها. (1)

فمن تمام الإعجاز أن يُخاطَب النّاس في كل العصور بالرغم من تغير وتطوّر علومهم بجملة واحدة تملأ عقولهم وأفئدتهم.

المثال الثاني: وهو في قول الله تعالى:(فَلاَ أُقْسِمُ بِالْخُنَّس الْجَوَارِ الْكُنَّس) [التكوير:15 - 16]، وقد ذُكرت في الآية أوصاف ثلاث حذف موصوفها الذي قال المفسرون في تحديده قولان:

الأوّل: أنّه بقر الوحش أو الضباء لأنها تخنس بمعنى تختفي في كناسها وهو بيتها. وروي هذا القول عن عدد من السلف(2).

الثاني: أنه الكواكب لأنها لا تُرى في النهار بمعنى تخنس. وحتى يتضح الأمر لا بد من بيان معنى الصفات الثلاث؛ وقد بينها ابن عاشور بأنّ: الخُنّس : جمع خانسة، أي

(1) د. النجار، السماء في القرآن، ص 203 - 204

(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج: 8، ص:337.

مختفيـة، والجـواري: جمـع جاريـة، وهـي التـي تجـري، أي تسـير سـيرا حثيثـا. والْكُنَّسِ مـع كانسـة، إذ يقـال: كنـس الظبـي، إذا دخـل كناسـه أي بيتـه [1]، وهـذا الأخيـر هـو أحـد معنيين جعلهمـا ابـن فـارس لكلمـة كنـس والمعنـى الثانـي هـو سَفْر شـيءٍ عـن وجهِ شـيء، وهـو كَشْـفُه.[2]

فـكلا القوليـن علـى هـذا يحتمـلان الصحـة إلا أنّ تصديـر الآيـة بالقسـم يجعـل الميـل إلـى الثانـي أكثـر،[3] ذلـك أن القسـم لا يكـون إلا للفـت النظـر لشـيء عظيـم، وعِظـم خلـق السـماء وموجوداتهـا أعظـم مـن خلـق الأرض فضـلا عـن الضّبـاء والبقـر، يقـول الله تعالـى: (لَخَلْـقُ السَّـمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّـاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّـاسِ لاَ يَعْلَمُـون) [غافر:57]. وهـذا أو غيـره جعـل الكثيـر مـن المفسـرين يرجـح المعنـى الثانـي، هـذا مـع التنبيـه علـى أن الأول قـد روي أثـرا عـن غيـر واحـد مـن الصحابـة، فقـد نقلـه القرطبـي عـن ابـن مسـعود وجابـر بـن عبـدالله والنخعـي و ابـن عبـاس وسـعيد بـن جبيـر وجابـر[4]. ومـع ذلـك؛ لنقـل بـأن الثانـي أقـوى لـكل مـا مضـى، فيكـون معنـى الآيـة: أن الله تعالـى أقسـم بتلـك الكواكـب والنجـوم التـي تحتجـب فـي النهـار وتظهـر فـي الليـل ولهـم فيهـا مواقيـت و(وَعَلامَـاتٍ وَبِالنَّجْـمِ هُـمْ يَهْتَدُون)[النحـل:16].

وتنقضـي الأيـام وتتقـدم العلـوم لتفسـر الآيـة بحسـب ذلـك الأصـل – أي أن يـراد بهـا النجـوم– ولكـن بحالـةٍ مـن أحوالهـا تمثـل مرحلـة مـن مراحـل حيـاة النجـوم يصـدق عليهـا الوصـف بالخنـس الجـواري الكنـس، وهـو مـا عـرف مؤخـرا باسـم الثقـوب السـوداء ، حيـث إن النجـوم كتـلٌ غازيـةٌ هائلـةٌ، تحـوي فـي باطنهـا 70 % هيدروجيـن و27% هيليـوم و3% غـازات أخـرى مثـل الأوكسـجين والكربـون والبـورون. [5] وتحتـرق ذرات الهيدروجيـن وتتحـول إلـى ذرّات مـن الهيليـوم فـي عمليّـة مسـتمرّة ويُرافـقُ ذلـكَ الضوء السّـاطع والحـرارة الهائلـة ،[6] هـذا النيتروجين سيسـتنفد وتنكمـش النجـوم علـى نفسـها مـع ازديـاد فـي درجـة حرارتهـا النابعـة مـن باطنهـا وتتولّـد اندماجـاتٌ وتفاعـلاتٌ نوويـةٌ جديـدةٌ، ويتولـد ضغـطٌ هائـلٌ يدفعهـا للانتفـاخ فيـزداد حجمهـا آلاف المـرات ويصبـح لونهـا أحمـر ورديـاً، وتسـمّى النجـوم بهـذا الطـور العمالقـة الحمـر، وهـذا الازديـاد سـيجعل حـرارةَ سـطحِها تبـرد، وبالتّالـي يتقلـص حجمهـا وتهمـد الاندماجـات ويتحـولُ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج:30، ص: 135.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، ج: 5، ص: 115.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج:30، ص:135.

(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ، ج:19، ص: 237.

(5) د. الطائي، أساسيات في علم الفلك والتقاويم، ص:158.

(6) محمد غصن، أسرار السماوات والأرض في القرآن، (لبنان: دار العلم للملايين، 2006 م)، ص: 73 - 74

لونُها للأبيض بالرغم من أنّ حرارَتها تتزايد بشكل كبير وتسمّى النجومُ بهذا الطور القزم الأبيض... [1]

فإذا زاد تراكم الضغط في داخل القزم الابيض فإنه ينفجر انفجارا كاملا محدثا نورا ً في السّماء يقارب نور بليون شمس كشمسنا , وتسمّي هذه المرحلة باسم النّجم المستعر الأعظم وقد يتحول أحيانا حتي يصل إلي مرحلة الثقب الأسود... وهذه المرحلة لا يمكن إدراكها بصورة مباشرة, ولكن يمكن تحديد مواقعها بعدد من الملاحظات غير المباشرة من مثل صدور موجات شديدة من الأشعة السينية من الأجرام الواقعة تحت تأثيرها, واختفاء كل الأجرام السماوية بمجرد الاقتراب من مجال جاذبيتها.

ومن العجيب أن العلماء الغربيين يسمون هذه الثقوب السود تسمية مجازية عجيبة حين يسمونها بالمكانس العملاقة التي تبتلع كل شيء يقترب منها إلي داخلها: (Giant Vaccum Cleanersthat Suckin every thing insight) [2]

فهي مختفية لا تُرى (خُنّس)، وهي تجري بهذا اللفظ الذي عُهِدَ استخدامُه لحركة الأجرام السماوية (وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ) [يس:38]، وهي جاذبة وكانسة كما احتملته مفردة (كُنّس). فبهذا عم الخطاب القرآني بمفرداته جميع الأزمان والأفهام .

المثال الثالث: وهو في قول الله سبحانه: (وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ)[الطارق: 11]، وقد ذكر الجمّ الغفير من المفسرين أنّ المقصود بذلك أنها ذاتُ مطر، وروي ذلك عن حبر الأمة، وعن مجاهد، واستشهد المفسرون [3] على استخدام العرب لكلمة الرّجع بمعنى المطر بقول الشاعر :

أَبْيَضُ كَالرَّجْعِ رَسُوبٌ إِذَا مَا ثَاخَ فِي مُحْتَفَلٍ يَخْتَلِي [4]

لكنّ علّة تسمية المطر بالرّجع لم تتضح من كلامهم على الأغلب، وعلى أقل تقدير فهموها بمعنىً بسيط لا يمكن أن يكتفى به في زماننا المعاصر، فقالوا مثلا: سمي بالرجع

(1) د. الطائي، أساسيات في علم الفلك والتقاويم، ص 166 - 167

(2) د. النجار، السماء في القرآن، ص 227 - 228

(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج: 8، ص: 376.

(4) الطبري، جامع البيان، ج: 24، ص: 302

لأن الله يرجعه وقتاً فوقتاً، [1] أو لأنه يرجع بالرزق كل عام [2]، ومن قدماء المفسرين أيضا من أفاد وأصاب؛ فقد ذكر صاحب أنوار التنزيل أنّ من جملة ما قيل في وجه ذلك: إن السحاب يحمل الماء من البحار ثم يرجعه إلى الأرض، [3] وذكروا أيضا معان أخرى للرجع كالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ يَرْجِعْنَ فِي السَّمَاءِ، تَطْلُعُ مِنْ نَاحِيَةٍ وَتَغِيبُ فِي أُخْرَى. والملائكة لِرُجُوعِهِمْ إِلَيْهَا بِأَعْمَالِ الْعِبَادِ.[4]وبهذا فقد ملأت الآية العقول فضلا عن القلوب في الزمن الماضي.

ولمّا جاء العصر الحديث فصّل الإجمال السّابق بأن ما يتصاعد من بخار الماء يعود مرّة أخرى إلى الأرض بعدما يتكثّف في منطقة نطاق التغيرات الجويّة، وهي على ارتفاع 7 - 8 كم عن سطح الأرض ولا يفلت منه شيء، وبالتّالي فإنّ كميّة المياه التي تتبخر من الأرض ستكون لا محالة بنفس الكميّة التي تنزل من السماء وهي 380000 كم3 في العام الواحد. [5]

واكتشفوا كذلك صورا جديدة لرجع السّماء من مثل ارتداد أمواج اللاسلكي من السماء إذا أرسلت إليها بسبب انعكاسها على الطبقات العليا الأيونية، حتّى إنّنا نستطيع أن نلتقط إذاعات بعيدة ومحطات بعد انعكاسها ونستمع إليها ونشاهدها [6]. وهي لا تتنافر أيضا مع اعتبار دوران كل ما في السّماء من أجرام في دورات إهليجية بحيث يدور القمر حول الأرض مبتدءا من نقطة ثم يعود إليها والأرض تدور وترجع، وكذا الكواكب الأخرى ؛ لا تتنافر مع كل هذا. [7] فكما ملأت الآية العقول والقلوب في الزمن الماضي أبهرتها في الحاضر؛ إنه الإعجاز بعينه.

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل، ج:5، ص: 304.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز، ص: 439.
(3) البيضاوي، أنوار التنزيل، ج: 5 ، ص: 304
(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ، ج: 20، ص:10 - 11
(5) د. النجار، تفسير الآيات الكونية ج:2، ص:258 - 259
(6) أ.د عبد الرحمن عباد، بحث في كتاب « من الإعجاز العلمي في القرآن الكريم « ج:2، ص: 417
(7) د. النابلسي، آيات الله في الآفاق، ص 43

المطلب الرابع:

باختلاف صيغة المفردة وتعددها تختلف دلالاتها العلميّة وتتعدّد

إن الناظر إلى المفردة القرآنية يجد أن من أهم الآثار المتحصّلة من وضعها اللغوي؛ هو تصريفها الذي يدفع بها إلى تفسير علمي مختلف تماما عن تفسيرها كما لو كانت بصيغة أخرى، ومن ذلك.

المثال الأوّل: من الأمثلة الواضحة على إدراك أثر تصريف المفردة القرآنية في التفسير العلمي طرح القرآن الكريم لظاهرة المشارق والمغارب بصيغ مختلفة بين الإفراد والتثنية والجمع، ذلك أنها جاءت مفردة في قوله تعالى:(قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُون)[الشعراء: ٢٨]، وجاءت على صيغة التثنية في قوله تعالى:(رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ)[الرحمن:17] وعلى صيغة الجمع في قوله تعالى:(فَلاَ أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُون)[المعارج:40].وتبعا لاختلاف تصريف كلمتي (المشرق والمغرب) يختلف التفسير العلمي، وكذلك قال المفسرون يقول ابن كثير: «(رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ) يعني: مشرقي الصيف والشتاء، ومغربي الصيف والشتاء. وقال في الآية الأخرى:(فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ)[المعارج: 40]، وذلك باختلاف مطالع الشمس وتنقلها في كل يوم، وبروزها منه إلى الناس. وقال في الآية الأخرى:(رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلا)[المزمل:9]. وهذا المراد منه جنس المشارق والمغارب» [1]

والعلم الحديث يبين الأمر ويوضح سرّ اختلاف التعبير بين الصيغ الثلاث، ذلك أن الأمر يعود إلى ميل محور الأرض عن مستوى مدارها حول الشمس بمقدار(33 درجة ونصف) لهذا فإن النصف الشمالي من الكرة الأرضية يميل نحو الشمس في الصيف فيطول النهار ويقصر الليل حتى يبلغ ذلك أقصى مداه وعند الاقتراب من الاعتدال الخريفي يأخذ هذا النصف في الميل عن الشمس فيطول الليل ويقصر النهار، وتستمر الشمس في تأخرها نحو الجنوب حتى تبلغ مدى بعدها إلى الجنوب في قمّة الشتاء، ومن ثم ترتد إلى الشمال في حركة ظاهرية يوما بعد يوم حتى تبلغ المشرق والمغرب في الاعتدال الربيعي، وهكذا ويصدق هذا جميعه في نصف الكرة الجنوبي. [2] ولحساب مقدار معدل

(1) ابن كثير تفسير القرآن العظيم، ج:3، ص:234.

(2) إبراهيم حسن، ظواهر جغرافية في القرآن الكريم، (الأردن: جمعية عمال المطابع 1400ه - 1980م)، ط1، ص:85.

حركة الشمس في المشارق والمغارب يقال إن الشمس تتحرك على مدى 47درجة من مشرق الانقلاب الصيفي الى مشرق الانقلاب الشتوي خلال 180 يوما أي تقطع حوالي 0,26 درجة بالتقريب [1]

المثال الثاني: وهو مجيء مفردة (اتخذت)على صيغة المؤنث دون المذكر في قوله تعالى: (مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاء كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُون) [العنكبوت:41]. فهل لمجيء هذه المفردة بصيغة التأنيث أثر تفسيري؟

نعم؛ لقد اكتشفوا حديثا أن أنثى العنكبوت هي التي تقوم بصناعة البيت دون الذكر، ذلك أنّ خيوط العنكبوت تخرج من غددٍ خاصة إلى خارج الجسم من الأنثى عبر مغازل المؤخرة، تجف بمجرد تعرضها للجو وينشأ عن جفافها خيوط متعددة الأنواع والأطوال والشدة تختلف باختلاف الغدد التي أفرزتها [2]

المثال الثالث: صيغة اسم الفاعل (موسعون) دون غيره في قوله تعالى: (وَالسَّمَاء بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُون) [الذاريات 47]، وقد جاء في تفسيره: أنّه من الوسع بمعنى الطاقة أي لقادرون على الإنفاق. أو أنّ المعنى لَمُوسِعُونَ السماء أو ما بينها وبين الأرض. أو لموسعون الرزق بِالْمَطَرِ. [3]

ومن بين هذه المعاني أن يراد بالاتساع اتساع المساحة الذي هو ضدّ الضيق، وعلى هذا فالآية تشير إلى اتساع مساحة السّماء وهذا المعنى من القوّة بمكان؛ يقول ابن كثير: (وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ)، أَيْ: قَدْ وَسَّعْنَا أَرْجَاءَهَا. [4] ولكن بحسب صيغة المفردة هل الاتساع انتهى أم لا؟

(1) د. الطائي، أساسيات في علم الفلك والتقاويم، ص: 36

(2) د. النجار، الحيوان في القرآن الكريم، (بيروت: دار المعرفة 1426ه - 2006 م)ط1، ص:140.

(3) انظر: البيضاوي، أنوار التنزيل، ج: 5، ص: 150، والقرطبي، ج:17، ص: 52

(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج: 7، ص:424

إنّ كلمة (موسعون) اسم فاعل من الفعل أوسع. [1] ومن شأن اسم الفاعل أن يدل على الثبات وهو بذلك أبلغ من الفعل [2]، وقد لفت المفسرون لعدد من الأمثلة في القرآن الكريم تدلل لذلك ومنها ما قاله الله سبحانه عن المنافقين : (وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُواْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُون)[البقرة:14] فهو بالفعل (آمنّا) أمام المؤمنين، لكنهم أمام شياطينهم قالوها باسم الفاعل (مستهزؤون) بالجملة الاسمية الدالة على الثبات [3]. وعلى هذا فالآية جاءت لتثبت قدرة الله تعالى على خلق الكون بشكل متسع رحيب وأنّ التوسّع ممتد باق. وذلك من خلال التعبير بصيغة اسم الفاعل وبقرينة أخرى وهي إضافته إلى (إنا) الدّالة على العظمة. بخلاف التعبير(فنعم الماهدون) المذكور في حق الأرض (وَالأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُون) [الذاريات:48] وجاء العلم الحديث ليكتشف أنّ الكَون في اتساع وتمدّد مستمر وتباعد بين المجرّات نتيجةً لذلك، يناسبه تماما التعبير بصيغة(موسعون) الواردة في الآية بهذه الصيغة. [4]

المطلب الخامس:

التقديم والتأخير بين المفردات له دلالات علمية دقيقة

إنّ مما هو مسلّم عند اللغويين أنّ التقديم والتأخير له أغراضه البلاغية، بل إنّ كتب التفسير بينت أسرار تقديم بعض الكلمات في النظم القرآني المحكم، وهذا من شأنه أن يلفت الأنظار إلى أسرار النظم في الآيات الكونية وعلاقته بالمعاني العلميّة. وانظر بعد ذلك كيف أفاد تقديم الجار والمجرور(في السماء) في قوله تعالى:(وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاء بُرُوجًا)[الحجر:16] تخصيص السماء بالبروج، دون الأرض التي خصص لها شيء آخر لم يوجد في السماء وهو (الرواسي) المذكورة بعد الجار والمجرور(في الأرض)في قوله تعالى:(وَجَعَلْنَا فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ)[الأنبياء:31]، فسبحان من أنزل الكتاب محكما، ومن الأمثلة:

---

(1) لأنّ اسم الفاعل يشتق مِنْ غيْرِ الثلاثي على صورة مُضارِعهِ بإبْدالِ حَرْفِ الْمُضارَعةِ مِيماً مَضمُومةً وكسر ما قبل الآخر، انظر النحو الواضح , ج:1، ص:323.

(2) وقد أُلِّف في ذلك رسالة وهي: (اسم الفاعل، المراد به الاستمرار في جميع الأزمنة)، لشهاب الدين الصباغ (المتوفى: 992هـ) بتحقيق د. محمد عواد ونشر: دار الفرقان – عمان الطبعة: الأولى، 1403هـ - 1983م

(3) انظر ابو السعود ، إرشاد العقل السليم، ج:1، ص: 64

(4) د. النجار، زغلول، السماء في القرآن (بيروت: دار المعرفة، 1426ه - 2005م)، ط1 ، ص: 101 - 102

المثـال الأول: وهـو فـي تقـدّم ذكـر الظلمـات علـى النـور فـي آيـات متعـدّدة مـن مثـل قـول الله تعالـى: (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّـذِي خَلَـقَ السَّـمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَـلَ الظُّلُمَـاتِ وَالنُّـورَ ثُـمَّ الَّذِيـنَ كَفَـرُواْ بِرَبِّهِـم يَعْدِلُون)[الأنعـام:1]، وتقـدّم ذكـر الليـل علـى النهـار مـن مثـل قولـه تعالـى: (إِنَّ رَبَّكُـمُ اللَّهُ الَّـذِي خَلَـقَ السَّـمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِـي سِـتَّةِ أَيَّـامٍ ثُـمَّ اسْـتَوَى عَلَـى الْعَـرْشِ يُغْشِـي اللَّيْـلَ النَّهَـارَ يَطْلُبُـهُ حَثِيثًـا...) [الأعـراف:54].

إنّ ممـا يلفـت النظـر أنـه قـد تقـدُّم ذكـر الظلمـات علـى النـور فـي عشـرة مواضـع مـن القـرآن الكريـم ولا عكـس، وانطلاقـا مـن إحـكام القـرآن ينبغـي أن نسـلّم أنّ ذلـك مـا كان إلا لغـرض، وكذلـك جمـع مفـردة الظلمـات مقابـل إفـراد كلمـة النـور، وقريـب مـن ذلـك تقـدّم ذِكـر الليـل علـى النهـار فـي آياتهمـا.

لقـد بحـث المفسـرون القدامـى ذلـك وكان ممـا قيـل فـي وجـه التقديـم والتأخيـر أنّ الظلمـة هـي الأصـل[1] أو نظـرا لسـبقها فـي الخلـق [2]؛ فلذلـك قدّمـت. ونظـروا إلـى مسـألة جمـع الظلمـات وإفـراد النـور باعتبارهـا أمـرا معنويـا فهـي كنايـة عـن الحـق والكفـر؛ فقالـوا فـي سـببه: لأن الحـق واحـد والباطـل كثيـر، وأمـا مـن حملهـا علـى الكيفيـة المحسوسـة، فقالـوا: أن النـور عبـارة عـن تلـك الكيفيـة الكاملـة القويـة، ثـم إنهـا تقبـل التناقـص قليـلا قليـلا، وتلـك المراتـب كثيـرة. فلهـذا السـبب عبّـر عـن الظلمـات بصيغـة الجمـع.[3]

ولكـن الأمـر يتبيـن بجـلاء فـي زماننـا، وذلـك إذا عرفنـا الحقيقـة القائلـة بـأن الكـون ظـلام حالـك وأن القشـرة المنيـرة فوقنـا لا تتعـدى200 كيلومتـر فقـط [4] وهـو حالـة النهـار التـي هـي نتـاج دوران الأرض حـول نفسـها أمـام الشـمس، فالأصـل العـام هـو الظلمـات؛ والنـور هـو شـيء يسـير، حتـى قـال ربنـا جـل جلالـه:(وَآيَـةٌ لَّهُـمُ اللَّيْـلُ نَسْـلَخُ مِنْـهُ النَّهَـارَ) [يـس:37] فيعـود الأصـل إلـى مـا كان عليـه(فَـإِذَا هُـم مُّظْلِمُـون) [يس:37].فبـان واتضـح الآن أنّ للتقديـم والتأخيـر أثـر مباشـر فـي التفسـير العلمـي.

(1) حسين بن مسعود البغوي، معالم التنزيل، (المملكة العربية السعودية: دار طيبة 1417ه - 1997م)، ط4،ج:3، ص126

(2) محمد علي الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية في علوم التفسير، (لبنان: دار ابن كثير 1414ه - 1994م)، ط1،ج: 2، ص:113

(3) الرازي، مفاتيح الغيب، ج: 12، ص:479

(4) منصور محمد، الكون والإعجاز العلمي للقرآن، (مصر: دار الفكر العربي، 1423 - 2003م) ص: 203

المثـال الثانـي: وهـو فـي تقـدّم السـمع علـى البصـر فـي قـول الله تعالى(ثُـمَّ سَـوَّاهُ وَنَفَـخَ فِيـهِ مِـن رُّوحِـهِ وَجَعَـلَ لَكُـمُ السَّـمْعَ وَالأَبْصَـارَ وَالأَفْئِـدَةَ قَلِيـلاً مَّـا تَشْـكُرُون) [السـجدة:9]، قيـل فـي سـبب التقديـم: لأنـه روعـي فيـه ترتيـب حصولهـا فـي الوجـود فإنـه يكتسـب المسـموعات والمبصـرات قبـل اكتسـاب التعقـل. [1].فعمليـة السـمع تسـبق التفكيـر فـي هـذا المسـموع الـذي سـمعه. لكننـا نلاحـظ أنّ هـذه الآيـة موضوعهـا خلـق الإنسـان والإشـارة إلـى بعـض أطـواره، الأمـر الـذي يجعلنـا نتوجّـه إلـى ربـط الآيـة بموضـوع الخلـق، والـذي يسـتوقف النظـر أنّ العلـم الحديـث يثبـت تقـدّم حاسـة السـمع علـى حاسـة البصـر فـي الخلـق[2]، ليتفـق ذلـك مـع تقدمهـا فـي الذكـر.

المثـال الثالـث: وهـو فـي ذكـر أطـوار خلـق الإنسـان فـي ترتيـب معيّـن مثـل قولـه تعالـى: (وَلَقَـدْ خَلَقْنَـا الإِنسَـانَ مِـن سُـلاَلَةٍ مِّـن طِيـنٍ ثُـمَّ جَعَلْنَـاهُ نُطْفَـةً فِـي قَـرَارٍ مَّكِينٍ ثُـمَّ خَلَقْنَـا النُّطْفَـةَ عَلَقَـةً فَخَلَقْنَـا الْعَلَقَـةَ مُضْغَـةً فَخَلَقْنَـا الْمُضْغَـةَ عِظَامًـا فَكَسَـوْنَا الْعِظَـامَ لَحْمًـا ثُـمَّ أَنشَـأْنَاهُ خَلْقًـا آخَـرَ فَتَبَـارَكَ اللَّهُ أَحْسَـنُ الْخَالِقِيـنَ) [المؤمنـون: 12 - 14] وهنـا أقـف مـع أمريـن:

الأمـر الأول: الترتيـب بيـن الأطـوار المذكـورة: إذ نعلـم أن إحـكام القـرآن يقـول أنـه مـا كان ذلـك إلا لفائـدة. والفائـدة هنـا أن هـذا الترتيـب فـي الذكـر موافـق للترتيـب فـي الوجـود، وفـي الحديـث « إِنَّ أَحَدَكُـمْ يُجْمَـعُ خَلْقُـهُ فِـي بَطْـنِ أُمِّـهِ أَرْبَعِيـنَ يَوْمًـا، ثُـمَّ يَكُـونُ عَلَقَـةً مِثْـلَ ذَلِـكَ، ثُـمَّ يَكُـونُ مُضْغَـةً مِثْـلَ ذَلِـكَ، ثُـمَّ يَبْعَـثُ اللَّهُ مَلَـكًا فَيُؤْمَـرُ بِأَرْبَـعِ كَلِمَـاتٍ،... » الحديـث [3]. وكذلـك فـإنّ الطّـب الحديـث اكتشـف أنّ البشـر يتـمّ خلقهـم فـي بطـون الأمهـات بحسـب هـذا الترتيـب. وبهـذا السـبق فـي تفصيـل أطـوار خلـق الإنسـان وترتيبهـا سـجّل القـرآن الكريـم مثـالا مهمّـا للإعجـاز العلمـي كمـا هـو معلـوم.

الأمـر الثانـي: تقـدّم خلـق المضغـة عظامـا قبـل كسـوتها باللحـم: وقـد ناسـب هـذا التقديـم أيضـا حقيقـة أنّ خلايـا العظـام غيـر خلايـا اللحـم وقـد ثبـت أن خلايـا العظـام هـي التـي تكـون أولا مـن الجنيـن، ولا تشـاهد خليـة واحـدة مـن خلايـا اللحـم إلا بعـد ظهـور خلايـا الهيـكل العظمـى للجنيـن.[4] علمـا بـأن الاعتقـاد قـد سـاد بـأن طـور تكويـن العضـلات للجنيـن يسـبق تكـون

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج:21، ص:152.

(2) د. فضل حسن عباس، إعجاز القرآن الكريم، (الأردن: دار الفرقان،1424ه - 2004م)، ط 5، ص: 263.

(3) صحيح مسلم، كتاب القدر، باب: كيفية خلق الآدمي في بطن أمه رقم (2643)

(4) طنطاوي ، محمد سيد التفسير الوسيط للقرآن الكريم، (دار نهضة مصر، الفجالة – القاهرة طبعة: الأولى، تاريخ النشر: 1997 م) ج:10، ص:17

الهيكل العظمي في الداخل، وظل هذا سائدا حتى منتصف القرن العشرين عندما ثبت أن المضغة تنمو للخارج وتتحول سريعا من أنسجة غضروفية إلى أنسجة عظمية لتكون العمود الفقري والهيكل العظمي بأكمله، ثم يبدأ طور آخر وهو اكتساء العظام بالأنسجة العضلية [1] فاتفق بذلك سبقها في الذكر مع سبقها في الوجود مخالفا للاعتقاد القديم وموافقا لما ثبت في الطب الحديث.

الخاتمة:

لقد سارت الدّراسة بشكل منهجي في عرض خمسة مطالب اقتضاها الموضوع، تمّ من خلالها عرض ثلاثة أمثلة في كل مطلب لّتدلّ على المُراد، وذلك بالوقوف مع مفردات قرآنية بمنهج تحليلي هادئ يدرس حال هذه المفردات من حيثيّات مختلفة: دلالة ومعنى وتصريفا ونظما، مما له أثر مباشر في توجيه التفسير العلمي لآياتها، وقد توصّلت الدراسة إلى النّتائج التالية:

أولا: المفردة القرآنيّة جزء رئيس من حلقات التفسير العلمي، وعدم الخروج عن دلالاتها هو أهم ضوابط ذلك اللون من التفسير الذي لا يمكن له أن يتم بمنأى عن تلك الدلالات، والتي إن خرجنا عنها فقد حمّلنا القرآن ما لا يحتمل. فدلالة كلمة (جامدة) بمعنى ساكنة، وفي مقابلتها كلمة (تمر) الدّالة على الحركة ومن دون إضافتها لحرف السين، في قوله تعالى:(وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ تَحۡسَبُهَا جَامِدَةٗ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ ﴿٨٨﴾) [النمل: 88]؛ تقودنا حتما إلى أنّ الآية تقرر حقيقة حركة الأرض لا حقيقة تحوّل الجبال وتذريتها في الآخرة.

ثانيا: كحالها في غير الآيات الكونيّة لم تخرج المفردة القرآنيّة في الآيات الكونيّة عن إفادتها معانٍ جديدة في كل تصريف لها كاختلاف ذكر المشرق والمغرب مفردا ومثنًّى وجمعاً، فضلا عن وضعا في النّظم الذي جاء على نحو تنسجم معه الحقائق العلميّة الثابتة ولا تنافره فتقدّم ذكر الظلمات على النور في مواضع ذكرها في القرآن لم يكن عن قضية سبقها في الوجود أو كونها الأعم في الكون لم يكن عنها ببعيد.

ثالثا: لقد تبيّن بالدّليل والبرهان التفريق بين مفردات ظُنّت أنها من قبيل المترادفات؛ تبيّن أنّ بينها مفارقات ومن الظلم أن نخلط الأمور لأنّ لكلّ مفردة منها دلالته العلميّة

(1) الراوي، عبد الوهاب، معجزات القرآن العلمية في الإنسان مقابلة مع التوراة والإنجيل، (الأردن، دار العلوم 2008م) ط1، 35 - 36

المنفصلة عن الأخرى، فقوله سبحانه: (وَالْبَحْرِ الْمَسْجُور) [الطور6] مختلف تماما عن قوله: (وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَت) [التكوير 6] فرق بين ما هو واقعٌ فعلا الآن ومقسَمٌ به، وبين ما هو آت مستقبلا قد عُبّر عنه بالفعل الماضي المسبوق بأداة الشرط الدّالّة على الظرفيّة.

رابعا: من تمام الإعجاز أن تملأ المفردة القرآنية العقول وتخشع لها القلوب في كل عصر، وقد جاءت كذلك تماما فبنفس الكلمة وبنفس المستوى من الإحكام والإعجاز يخاطْب النّاس على مرّ العصور مهما تقدّم علم البشر . فالتفسير المعاصر لما أقسم الله تعالى به في قوله: (فَلاَ أُقْسِمُ بِالْخُنَّس الْجَوَارِ الْكُنَّس)[التكوير:15 - 16] بالثقوب السوداء لا يقل شأنا بالنسبة للمخاطبين عن تفسيرها بأنها النجوم التي تختفي نهارا وتظهر دليلا للسائرين في صحراء مترامية الأطراف ليلا؛ لا يقلّ شأنا عن ذلك.

وفي نهاية الأمر أسأل الله عزّ وجلّ أن يعلّمنا ما ينفعنا وأن ينفعنا بما علّمنا، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

قائمة المصادر والمراجع :

ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير، (لبنان: مؤسسة التاريخ العربي1420 هـ – 2000م) ط1 .

ابن عطية ، عبد الحق بن غالب، المحرر الوجيز في مزايا الكتاب العزيز، تحقيق عبد السلام عبد الشافي، (لبنان: دار الكتب العلمية، 1422هـ - 2002م) ط1.

ابن فارس، أحمد، مقاييس اللغة، (اتحاد الكتاب العرب 1420هـ - 2000م) ط1.

ابن كثير، إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم ، تحقيق سامي سلامه، (المملكة العربية السعودية: دار طيبة للتوزيع والنشر،1420ه – 1999م)، ط2.

ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب (لبنان: دار صادر 1414هـ - 1994م) ط1.

أبو السعود،محمد بن محمد العمادي، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، (لبنان: دار إحياء التراث العربي، 1422هـ، 2002م).

أبو حيان، محمد بن يوسف، البحر المحيط، تحقيق صدقي محمد جميل، (لبنان: دار الفكر 1420هـ، 2000م) ط1.

البغوي،حسين بن مسعود،معالم التنزيل،(المملكة العربية السعودية:دار طيبة1997)ط4.

الرازي، فخر الدين محمد بن عمر، مفاتيح الغيب، (لبنان، دار الكتب العلمية، 1421 - 2000م) ط1.

10)الرافعي، مصطفى صادق، وحي القلم، (لبنان: دار الكتب العلمية، 2000م) ط1.

الراوي، عبد الوهاب، معجزات القرآن العلمية في الإنسان مقابلة مع التوراة والإنجيل، (الأردن، دار العلوم 2008م) ط1.

الزحيلي، د. وهبة بن مصطفى، التفسير المنير، (لبنان: دار الفكر، 1998م)، ط2.

الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، (لبنان: دار الفكر، 1994م) ط1.

الزمخشري، محمود بن عمر، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، (لبنان: دار التراث العربي،1427هـ - 2007م)، ط1 .

الزركشي،بدر الدين محمد بن عبد الله، البرهان في علوم القرآن، (سوريا: دار إحياء الكتب العربية، 1376هـ - 1957م)،ط1.

السعدي، داود، أسرار الكون في القرآن، (دار الحرف العربي 1997م)، ط1.

السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، الدر المنثور في التفسير بالمأثور،، (مصر: دار هجر للبحوث، 1424هـ – 2003 م)، ط1.

السيوطي،عبدالرحمن بن أبي بكر، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، (لبنان: دار الكتب العلمية، 1418هـ - 1998م)، ط1.

الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، (لبنان: دار الفكر 1415هـ – 1995) ط1

الشوكاني، محمد علي، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية في علوم التفسير، (لبنان: دار ابن كثير 1414ه - 1994م)، ط1.

الطائي، د. محمد باسل، أساسيات في علم الفلك والتقاويم، (الأردن، مكتبة الروزنا، 1421ه - 2001م)، ط1

الطبري , محمد بن جرير ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق محمود شاكر، (لبنان: مؤسسة الرسالة، 1420هـ - 2000م)، ط1.

القاسمي، محمد جمال الدين، محاسن التأويل، (لبنان: دار الكتب العلمية 1418ه - 1998م)، ط1.

القرطبي، محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: سالم البدري، (لبنان: دار الكتب العلمية،1420هـ - 2000م)، ط1.

النجار، د. زغلول، الأرض في القرآن (لبنان، دار المعرفة 2001) ط1.

النجار، د. زغلول، السماء في القرآن (بيروت: دار المعرفة، 1426هـ - 2005م)، ط1.

النجار، د. زغلول، الحيوان في القرآن الكريم، (بيروت: دار المعرفة 1426هـ - 2006 م)ط1.

حسن، إبراهيم، ظواهر جغرافية في القرآن الكريم،(الأردن: جمعية عمال المطابع 1400هـ - 1980م)، ط1.

عباد، أ د.عبد الرحمن، الإعجاز العلمي في القران الكريم، ورقة بحثية في المؤتمر العلمي الثالث للإعجاز في القرآن الكريم، (فلسطين، غزة، مطابع الجراح 2001 - 1422) ط1.

عباس، د. فضل حسن، إعجاز القرآن الكريم، (الأردن: دار الفرقان،2004م)، ط 5

غصن، محمد، أسرار السماوات والأرض في القرآن، (لبنان: دار العلم للملايين، 1426هـ - 2006 م)، ط1.

منصور محمد، الكون والإعجاز العلمي للقرآن،(مصر:دار الفكر العربي، 2003م)ط1.

The Qur'anic Term and its Impact on Guiding Scientific Interpretation

Ahmed Ibrahimm Abebneh

College of Law (Shari'a Department) - Arab University of Amman

Amman - Jordan

Abstract:

In this study, I have examined the impact of the Qur'anic term on guiding scientific interpretation from five perspectives, each of which represents an inference and a description of the place of the Qur'anic word in the verses related to the universe. These inferences came as a result of a close examination of the examples provided by scientific interpretation through which I explained the cases where the meanings of some words were thoroughly illustrated. These words are considered as cornerstones of the verses where they occur and as a basis for sound and acceptable interpretation. The importance of this study lies in its practical presentation of the rules of scientific interpretation by showing the relationship between scientific interpretation and the language of the Qur'an, as a locus of rhetorical miraculousness, through clear and lucid examples.

Keywords: Term, Qur'anic, Scientific Interpretation, Qur'an.